العلم والعلماء بين مصر والقدس في العصر العثماني

د.جمال كمال محمود
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب– جامعة القاهرة

مدخل:

يلعب العلم والعلماء دورًا كبيرًا في تقوية الروابط بين الشعوب وبعضها البعض ودور العلم لا يقل عن السياسة والاقتصاد في ذلك الأمر، بل ربما يتفوق عليه في بعض الأحيان، وقد كان الأزهر – ولا يزال – رابطًا قويًا بين مصر والقدس منذ إنشائه وحتى الآن. وقد ساعد على ذلك أن الدراسة في الأزهر لا تعترف بالتفرقة بين الشعوب من حيث الأصل أو اللغة بل الكل سواء طالما أنهم مسلمون، وتقوى تلك الرابطة إذا كانت مصر والقدس تحت حكم دولة واحدة، وهو ما تحقق في أغلب عصور التاريخ خصوصًا العصر العثماني الذي نحن بصدد دراسة العلاقات بين البلدين خلاله.

وساعد وجود الأزهر على نزوح عدد ليس بالقليل من المقدسيين للدراسة بالأزهر، وآثر البعض من هؤلاء الاستقرار في مصر والتدريس في الأزهر وغيره من المساجد والمدارس، وتبوأ البعض من هؤلاء مكانة متميزة في عصره. حيث اشتغل العلماء المقدسيون في وظائف التدريس والإفتاء بالأزهر ومن المقدسيين من جمع بين التدريس والإفتاء معًا. كما تولى بعض العلماء المقدسيين وظائف القضاء في مصر.

وارتبط الكثير من العلماء المقدسيين بكبار العلماء في مصر سواءً أكانوا مصريين أم نازحين إلى مصر من بلدان العالم الإسلامي، وكان لبعض العلماء المقدسيين علاقات قوية بالعديد من كبار الأمراء من المماليك، أي ارتبطت الصفوة العلمية بالصفوة المملوكية أو بمعنى آخر ارتبط العلم بالسياسة.

وعلى الجانب الآخر وُجد العديد من العلماء المصريين بالقدس سواءً للزيارة أو الاستقرار، وهؤلاء كانوا حلقة الوصل كسابقيهم بين مصر والقدس. ومما ساعد

على ذلك وجود المكتبات، وهي أهم أدوات العلم والمعرفة؛ حيث حوت الكثير من المساجد والمدارس على خزائن الكتب مما سهل على الطلبة والدارسين بشكل عام المادة العلمية اللازمة لبحوثهم، ولم يقتصر وجود المكتبات على المسلمين فحسب، بل وجد العديد من المكتبات داخل الكنائس والأديرة، ولاشك في أن ذلك كله ساعد بشكل أو بآخر على دعم العلاقات بين مصر والقدس.

- دور الأزهر تقوية الروابط العلمية بين مصر والقدس :

يعد الأزهر أقدم جامعة – لا تزال تؤدي دورها منذ إنشائه في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حتى الآن – على وجه الأرض. وإن كانت هناك جامعات أو معاهد علمية وتعليمية أقيمت في مصر قبل الأزهر، مثل جامعات منف، وهليوبوليس، وسايس وغيرها في العصر الفرعوني، وأكاديمية الإسكندرية ومكتبتها في العصرين البطلمي والروماني. وأقيمت في بعض أقاليم منطقة الشرق مؤسسات علمية ذات مستوى رفيع مثل أكاديمية أثينا وغيرها في العصر الهليني. ولكن لم تعمر جميع هذه المؤسسات طويلاً، وطويت صفحتها، واندثرت معالمها، وانتقلت من مسرح التاريخ إلى كتب تروي قصتها للأجيال المتعاقبة. وعلى ذلك إذا قلنا إن الأزهر الشريف هو أقدم جامعة في العالم، فإننا نعني أنه أقدم جامعة سلخ من عمره أكثر من ألف سنة، ولا يزال بصرحه الشامخ وامتداداته الإقليمية يواصل مسيرته الحضارية، ولا يزال بحيويته المتجددة الرمز الحي المجسد للتراث الفكري الإسلامي العربي. وقد قيل في هذا الصدد إن للمسلمين قبلتين، قبلة دينية، وأخرى علمية. أما القبلة الدينية فهي المسجد الحرام في مكة المكرمة. وأما القبلة العلمية فهي الأزهر الشريف في القاهرة[١].

لقد قدر للأزهر منذ أن بدأ الفاطميون إنشاءه عام ٣٥٩هـ/٩١٩م. أن يكون حدثًا مهمًا، فمنذ بداية الصلاة فيه عام ٣٦١هـ/٩٢١م. كان كعبة العلم والعلماء في مصر، والحصن الحصين لعلوم الإسلام واللغة العربية، للحفاظ عليها والعمل على إنمائها وتطورها ورغم أن الفاطميين استغلوا الأزهر لنشر المذهب الشيعي إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً؛ حيث أغلقه السلطان صلاح الدين الأيوبي لكونه من أهم مراكز نشر المذهب الشيعي، ثم قام بإنشاء المدارس التي تهتم بالمذهب السني ورصد الأوقاف عليها. وما إن قامت سلطنة المماليك حتى أعادوا فتح الأزهر مرة أخرى ولكن هذه المرة ليكون قلعة لنشر المذهب السني. ومنذ ذلك الوقت أصبحت مصر وأزهرها قبلة للعلم والعلماء. واستمر ذلك الوضع حتى العصر العثماني، وتطور الأزهر أكثر ولم يتدخل العثمانيون في شئونه التعليمية[٢]، ومما ساعد الأزهر على الاستمرار؛ الأوقاف التي أرصدت على الأزهر وأروقته المتعددة.

ولعب الأزهر دورًا مهمًا في احتفاظ مصر بالريادة العلمية، حيث حسمت المنافسة بين القاهرة وبغداد عاصمة الخلافة العباسية لصالح القاهرة منذ أوائل عصر سلاطين المماليك على أثر الهجمة المغولية على بغداد، كما حسمت أيضًا المنافسة بين القاهرة ودمشق، بعد الغزوات الصليبية على العالم الإسلامي والتي تركزت على الشام بخاصة وما لبثت الشام نفسها أن أصبحت إقليمًا تابعًا لدولة المماليك وعاصمتها القاهرة وبالتالي ظلت القاهرة «العاصمة» مركز الصدارة، ليس للسلطة فحسب بل كملتقى للعلماء من كل مكان. واستمرت تلك الريادة خلال العصر العثماني وظل الأزهر قبلة للطلاب والعلماء من أنحاء العالم الإسلامي وفي مقدمتها بلاد الشام.

- رواق الشوام بالأزهر الشريف :

أقبل الشوام بما فيهم المقدسيون على مصر للتعليم بأزهرها. ويرجع ذلك للعلاقات القوية التي تربط بينهما وتضرب بجذورها في أعماق التاريخ، حيث كانت مصر والشام دولة واحدة في فترات طويلة من التاريخ ونتيجة ازدياد عدد الوافدين من الشام للدراسة بالأزهر تم تخصيص رواق لهم عرف برواق الشوام. ويقع إلى يمين الداخل من باب الشوام. وبابه في المقصورة القديمة، ويشتمل على إيوانين متسعين غطيت أرضهما بالبلاط. وشيدت في أعلاهما مساكن للطلبة. وقد بلغ عددها ثلاثين مسكنًا. وبالرواق خزانة كتب يشرف عليها قيِّم وبلغ عدد محتوياتها ٢١٠٠ مجلدًا، وكانت الاستعارة الخارجية للكتب متاحة لطلبة جميع الأروقة بالأزهر بالشرط التقليدي أي بعد أن يستوفي طلبة الرواق حاجاتهم من الكتب أولاً. وفي الرواق بئر وصنابير داخلية وخُلية للتعبد ومطبخ. وكان يعمل فيه جابٍ لتحصيل إيراد الأوقاف المحبوسة على الرواق، كما عين فيه كاتب وباب وسقاء.

وهو أكبر أروقة الأزهر وأكثرها ازدحامًا بالطلبة. وبلغ مقدار الجراية التي تصرف لهم كل يومين ثمانمائة وستة وخمسين رغيفًا. كما كانت تصرف لهم مرتبات نقدية في أول كل شهر هجري. وقد أنشأ هذا الرواق السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) وهو أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة. وزاد فيه الأمير عثمان كتخدا القازدغلي، ثم الأمير عبد الرحمن كتخدا، وهما من الأمراء البارزين في العصر العثماني[٣].

- تنظيم أروقة الأزهر في العصر العثماني :

خضعت أروقة الأزهر لنظام إداري دقيق في العصر العثماني. فقد سجلت الأروقة التي يقيم فيها الطلبة وبعض مدرسي الأزهر تسجيلاً تفصيليًا دقيقًا في سجلات قاضي القضاة العثماني بمحكمة الباب العالي بالقاهرة، بأسمائها وأوصافها ومواقعها وتقسيماتها. وخضع تقسيم الأروقة إلى نظام الخلوات – غرف معزولة للتعبد – فالمقيم في الرواق، سواء كان مدرسًا أو طالبًا، يتبع خلوته طبقًا للتحديد الوارد في قرار قاضي القضاة الصادر بإسكانه. ويلاحظ أن معظم الخلوات كان يسكنها المدرسون في الأزهر؛ لأن النظام السائد وقتذاك أن تظل إقامتهم فيها. أما الطلبة فكانوا يتبعون مساكن الخزانات – صيوان كبير – والطاقات. وعلى الرغم من أن قرار إسكان المدرس أو الطالب بالأروقة يقتضي أن يكون صادرًا من قاضي القضاة في مصر ومسجلاً في سجلاته كان لا ينفذ إلا بعد أن يعتمد بخاتم اثنين من كبار علماء الجامع الأزهر(٤).

وقد ارتبط العلماء المقدسيون بالأزهر، حيث نجد أن الكثيرين منهم قد عاد إلى بلاده بعد تحصيله العلم ونال الإجازة العلمية من علمائها، وصار في مصاف العلماء وأهل الإفتاء والتدريس؛ ولكنه يحرص على الاستزادة من العلم فيكرر زيارته إلى مصر أكثر من مرة، وكان لهذا أثره في الترابط الثقافي بين مصر والقدس(٥).

ولعل أهم خصائص أروقة الأزهر أنها تطبق سياسة التمييز العنصري على الطلبة الراغبين في سكناها، ولم تأخذ بنظام الطبقية، فكانت الأروقة تستقبل بني الإسلام، ولم تؤثر فريقًا على فريق بسبب الفروق الاجتماعية أو الاقتصادية فكانت

المساواة بأوسع معانيها هي سمة نظام القبول بالأروقة. وقد قامت أروقة الأزهر بدور بارز في دعم الترابط بين الشعوب الإسلامية في الشرق والغرب[٦].

- العلماء المقدسيون في مصر :

رأينا كيف نزح الكثير من الشوام للدراسة في الأزهر وكانت أعدادهم كبيرة بدليل وجود رواق كبير لهم، وكان من بين الشوام العديد من المقدسيين. وقد تصدى الكثير من المقدسيين الذين أتموا علومهم بالأزهر للتدريس والإفتاء فيه بعد أن أجيزوا من علمائه ونعتوا بأنهم «من أعيان أهل الإفادة والتدريس بالجامع الأزهر» بل إن هناك علماء مقدسيين جمعوا بين وظيفتي التدريس والإفتاء في الوقت نفسه مثل الشيخ حسن المقدسي الحنفي. فقد أشارت المصادر إلى أنه كان من أعيان أهل الإفادة والإفتاء والتدريس بالجامع الأزهر[٧].

وكان له آخر يدعى أحمد بن نور الدين المقدسي الحنفي، وكان إمامًا جامعًا قجماس[٨]. وخطيبه بالدرب الأحمر وشارك أخوه الشيخ حسن المقدسي في شيوخه واشتغل بالعلم، «وكان شيخًا وقورًا بهي الشكل مقبلاً على شأنه منجمعًا على الناس». توفيَّ في ٢٦ ربيع الأول ١١٩٠هـ/٥ مايو ١٧٧٦م[٩].

واشتغل الشيخ حسن المقدسي بالتدريس في المدرسة الصرغتمشية[١٠] التي كانت مشروطة لشيخ الحنفية. وكان الشيخ حسن المقدسي شيخًا للشيخ محمد بن حسن الجزايرلي وأعطاه تدريس الحديث بهذه المدرسة[١١]. ودرَّس كذلك الشيخ حسن بالمدرسة المحمودية[١٢] والأكثر من ذلك أنه اشتغل بالتدريس في الجامع الأزهر ذاته[١٣].

وكان الشيخ عبد الرحيم بن أبي اللطف الحسيني الحنفي المقدسي من العلماء المقدسيين وتعلم في مصر وغيرها، حيث قرأ بمكة على الإمام زين العابدين بن عبد القادر الطبري، وبمصر على الشيخ الشبراملسي، والشمسي البابلي، والشمسي الشوبري، والفقيه علي الشهابي الشوبري الحنفي، وحسن الشرنبلالي، وعبد الكريم الحموي الطرابلسي، وبدمشق علي السيد محمد بن علي الحسيني المقدسي الدمشقي وتوفيَّ بأدرنة سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م(١٤).

وكان شيخ الإسلام نور الدين علي المقدسي الحنفي أحد القضاة وكان ممن أفتوا بعدم تعدي طائفة من اليهود على طائفة أخرى عندما عرض عليه نزاع بين اليهود القرائين والربانيين(١٥). ويعد مرعي بن يوسف المقدسي من العلماء وله كتاب «قلائد العقيان في فضائل آل عثمان»(١٦).

ونجد الشيخ شمس الدين بن محمد بن الشيخ موسى المقدسي، مدرس الفقه الحنبلي بمدرسة السنقرية ببولاق، وكذلك الشيخ علي بن محمد المقدسي، مدرس الفقه الحنبلي كذلك بالمدرسة الصلاحية(١٧).

ونبغ العديد من العلماء المقدسيين في الفقه مثل الشيخ علي بن محمد المقدسي الحنفي، رأس الحنفية في عصره، وإمام أئمة الدهر على الإطلاق، وكان مرعي بن يوسف ابن أبي بكر المقدسي أحد كبار علماء الحنابلة كما نبغ كذلك في علم التاريخ. وكان عبد الله المقدسي الأزهري ممن اهتموا بعلم التنجيم. كما كان السيد علي بن موسى المقدسي المعروف بابن النقيب ممن نبغوا في النثر ولم يكن يتكلف في كتاباته النثرية السجع ويسترسل على سجيته(١٨).

وكان الشيخ علي بن موسى المقدسي من كبار علماء عصره وكان شيخًا للجبرتي ويذكر عنه الجبرتي ما نصه «شيخنا السيد علي المقدسي»[١٩]. وارتبط الشيخ علي المقدسي بكبار علماء عصره مثل السيد مرتضى الزبيدي[٢٠]، حيث يذكر الجبرتي «واجتمع به شيخنا السيد مرتضى في منزل السيد علي المقدسي»[٢١].

وقد أفرد الجبرتي للشيخ علي بن موسى ترجمة وافية؛ حيث ذكر أنه ينتهي نسبة إلى الإمام الحسين بن علي كرم الله وجهه.ويلقب بـ«الحسيني المقدسي الأزهري المصري» ويعرف بالنقيب؛ لأن أجداده تولوا النقابة ببيت المقدس، ولد نحو سنة ١١٢٥هـ/١٧١٣م ببيت المقدس وبها نشأ، وقرأ القرآن على الشيخ مصطفى الأعرج المصري وغيره، وأخذ العلم عن أبي بكر بن أحمد العلمي مفتي القدس، ووصل إلى الشام وأخذ عن عدد من الشيوخ منهم الشيخ عبد الغني النابلسي[٢٢] وعاد إلى بيت المقدس، فاجتمع بالشيخ عبد الغني النابلسي أيضًا، وبالسيد مصطفى البكري بحلب حينما كان راجعًا من بغداد، فأخذ عنه الطريقة، ورغَّبه في مصر، فوصلها وحضر مجالس العديد من العلماء مثل الشمسي السجيني، ومصطفى العزيزي وغيرهما، ويضيف الجبرتي «ورأس في المذهب وتمهر في الفنون، ودرَّس في المشهد الحسيني في التفسير والفقه والحديث واشتهر أمره، وطار صيته، وكان فقيهًا في المذهب بارعًا في معرفة فنونه، عارفًا بفروعه وأصوله، يستنبط الأحكام بجودة ذهنه وحسن حافظته»[٢٣].

وتمتع الشيخ علي بن موسى المقدسي بوضع اجتماع متميز، حيث كان منزله الذي يقع قرب المشهد الحسيني «موردًا للآملين، ومحطًا لرحال الوافدين، مع رغبة في الخيل المنسوبة، وحسن معرفة لأنسابها، وعزوه لأربابها، وكان اصطبله دائمًا لا يخلو

من اثنين أو ثلاثة يركب عليها، ويضمرها ويعتني بأحوالها، ويرغب في شرائها لمعرفته بالفروسية في رمي السهام، واستعمال السلاح واللعب بالرماح وغير ذلك»[٢٤].

وتطور وضعه أكثر وانتقل إلى منزل واسع بالحسينية، فسكنه وعمَّر زاوية كانت بالقرب من منزله، ثم توجه إلى عاصمة الدولة العثمانية سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٣م وكان لا يزال يدرِّس في المشهد الحسيني، وعزم عبد الرحمن كتخدا على هدمه وإنشائه وانتهز فرصة سفر الشيخ علي إلى دار السلطنة، ومكث هناك مدة وأقبلت الناس عليه، وأحبه الأمراء وأرباب الدولة، وتزوج سيدة رومية هناك، ثم عاد إلى مصر واستقر في منزله، وعاد إلى دروسه في المشهد الحسيني وكان ذلك سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م، وكان معتادًا إكرام الضيوف وبذل المعروف، وكان متزوجًا من ثلاث نساء، شامية ومصرية ورومية[٢٥].

وارتبط الشيخ علي المقدسي ببعض كبار الأمراء في عصره، وكان محمد بك أبو الذهب أحد هؤلاء، حيث ذهب إليه الشيخ وكان في ضائقة مالية، فتحدث معه أبو الدهب وسأله عن أهل إسلامبول فقال له «لم يبق بسلامبول ولا بمصر خير ولا يكرمون إلا شرار الخلق وأما أهل العلم والأشراف فإنهم يموتون جوعًا» وفهم الأمير الأمر، وأمر له بمائة ألف نصف فضة، فقضى منها ديونه وأنفق منها على الفقراء، وعاش بعدها أربعين يومًا ثم «تعلل بخرَّاج فجاءه رجلاً يهوديًا فقصده بمشتر – أي مشرط – وتعني موس الحلاقة – قيل أنه مسموم فكان سببًا لموته» وتوفيَّ عصر الأحد ٦ شعبان ١١٨٦هـ/٢ نوفمبر ١٧٧٢م[٢٦].

وجهز وصُلي عليه بالأزهر في مشهد حافل، وأحضر له الأعيان عدة أكفان وأصرَّ كل منهم على أن يكفَّن في كفنه، فترضية للجميع أخذوا من كل كفن قطعة

وكفنوه في كل ذلك «جبرًا لخواطرهم» وأعطى الأمير محمد بك لأخيه السيد بدر الدين خمسمائة ريال لتجهيزه ودفنه[٢٧].

ويعد أخوه السيد بدر بن موسى المقدسي أحد كبار علماء عصره، وجلس مكان أخيه في الدار، وتصدر مكانه لإملاء درس الحديث النبوي الشريف بمسجد المشهد الحسيني، وسار السيد بدر على منوال أخيه «وسار سيرًا حسنًا، وجرى على نسقه وطبيعته في مكارم الأخلاق، وإطعام الطعام وإكرام الضيفان، والتردد على الأعيان والأمراء والسعي في حوائج الناس» وعقب الاحتلال الفرنسي وقيام ثورة القاهرة الأولى جمع السيد بدر المقدسي الجموع من أهل الحسينية وما جاورها وشارك في الثورة، وعقب فشل الثورة خرج فارًا إلى بيت المقدس وتتبع الفرنسيون أخباره، ولما لم يصلوا إليه نهبوا داره وهدموا جزءًا منها وخرَّبوا المسجد، وبعد خروج الفرنسيين من مصر عاد وأعاد بناء داره مرة أخرى وسكن بها وعاد إلى سيرته الأولى في التدريس[٢٨].

وكان الشيخ زين الدين محمد بن محرد المقدسي من العلماء الذين قاموا بالتدريس في الأزهر، وكان الشيخ عبد الله بن الشيخ أحمد المقدسي عالمًا كذلك وتذكر المراجع أنه «الشيخ العلامة مفتي المسلمين مفيد الطالبين وكان يدرِّس بالأزهر كوالده، واشتغل البعض من العلماء مثل الشيخ علي بن محمد بن علي بن غانم المقدسي الأصل الخزرجي القاهري المولد والسكن، وكان يشترط فيمن يقوم بالتدريس في هذه المدرسة أن يكون أعلم علماء الحنفية وتولى مشيخة القراء بمدرسة السلطان حسن ودرَّس بمدرسة الصرغتمشية. كما كان الشيخ عبد الرحمن نور الدين المقدسي مدرسًا ففقه بمدرسة السلطان الملك المؤيد»[٢٩].

ويُعد الشيخ حسن بن نور الدين المقدسي، الحنفي الأزهري من كبار علماء عصره، وتفقه على شيخ وقته الشيخ سليمان المنصوري، والشيخ محمد بن عبد العزيز الزيادي، ودرَّس بالجامع الأزهر في حياة شيوخه، ولما بنى الأمير عثمان كتخدا مسجده بالأزبكية، جعله خطيبًا، وإمامًا به، وسكن في منزل قرب الجامع، وراج أمره، وأصبح شيخًا للحنفية خلفًا لشيخه الشيخ سليمان المنصوري، وكان له علاقات طيبة بالأمير عبد الرحمن كتخدا، ثم بنى له منزلاً نفيسًا مطلاً على بركة الأزبكية بمساعدة بعض الأمراء، وذاع صيته[٣٠].

وفي دمياط نبغ الشيخ شهاب الدين أحمد السعدي المقدسي الحنفي، وكان إمامًا للحنفية بالمدرسة المعينية بدمياط[٣١].

ولم يقتصر دور المقدسيين على التدريس والإفتاء بل تولى العديد منهم القضاء، حيث كان الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد المقدسي قاضيًا لمحكمة جامع الحاكم، والشيخ حافظ الدين المقدسي قاضيًا بالمنصورة، ومحمد حافظ المقدسي الحنفي قاضيًا بدمياط، وأحمد القدسي الحنفي قاضيًا المحكمة نفسها[٣٢].

وعلى ذلك نبغ العديد من المقدسيين وبرعوا في العديد من العلوم وتصدوا للإفتاء والتدريس بالجوامع الكبيرة وعلى رأسها الأزهر، بل ترأس البعض منهم المذهب الحنفي – المذهب الرسمي للدولة العثمانية – كما اشتغل العديد منهم بالقضاء، وارتبطوا بالعديد من كبار الأمراء في العصر العثماني.

– العلماء المصريون في القدس:

تردد العديد من العلماء المصريين على القدس ودرَّسوا بها العلوم الدينية ومن أشهر العلماء الذين ترددوا على القدس الإمام الشافعي مؤسس أحد المذاهب الأربعة والذي كان كثير التردد على المدينة التي كانت تجذبه قدسيتها[٣٣]. وقد استمرت القدس مركز جذب للمتصوفين والعلماء من مصر وغيرها. وقد رأينا كيف هاجر كثير من العلماء إلى بيت المقدس مما أدى إلى نشوء الكثير من الأسر العلمية التي أثرت الحياة العلمية في القدس بما أنجبته من علماء، وبما كان لهؤلاء من جهود علمية ومؤلفات، ومنهم على سبيل المثال أسرة بني القلقشندي التي تنتسب إلى الشيخ تقي الدين القلقشندي (٦٧٨هـ/١٣٧٦م)[٣٤]. وقد دفن القلقشندي في القدس، وكذلك شهاب الدين أحمد المصري المقدسي الشهير بابن الهائم (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، وكذلك الشيخ عثمان الحطاب المصري من أعيان الصالحين بمصر[٣٥].

ومن العلماء الذين زاروا القدس الشيخ عبد الرحمن الحسيني العلوي العيدروسي التريمي الذي ينتهي نسبه للإمام علي كرم الله وجهه «ثم رجع إلى بيت المقدس وزار وعاد إلى مصر»[٣٦]. وزار الإمام المحدث الفقيه السيد محمد بن أحمد الحسيني الشهير بالبخاري مصر واجتمع بعلمائها، ثم زار بيت المقدس فأكرم بها[٣٧].

ومن العلماء من نزح إلى مصر ودرس بها ثم انتقل إلى بيت المقدس مثل الشيخ شامل أحمد بن رمضان بن سعود الطرابلسي، وكان صديقًا للجبرتي، وكان قد نزح إلى مصر سنة ١١٩١هـ/١٧٧٧م، وجاور بالأزهر وتولى مشيخة رواق المغاربة بالأزهر الشريف، وكان من أصدقاء الشيخ حسن العطار كذلك، وعندما

هاجم الفرنسيون مصر، خرج مع من خرجوا وذهب إلى بيت المقدس وظل بها إلى أن مات في السنة نفسها ١٢١٤هـ/١٧٩٨م[٣٨].

وكان الشيخ محمد بن سير بن الشافعي المقدسي ممن درسوا في مصر، حيث قدم به والده إلى مصر، وقرأ القرآن، واشتغل بالعلم، وحضر دروس بعض كبار علماء عصره، واتصل بالشيخ محمود الكردي، فلقنه الذكر ولازمه، وحصلت له من الأنوار، وانجمع عن الناس، ولاحت عليه لوائح النجابة، وألبسه التاج، وجعله من جملة خلفاء الخلوتية – إحدى الطرق الصوفية –، وأمره بالتوجه إلى بيت المقدس، فوصلها وسكن بالحرم، وبدأ في تعليم الطلبة العلوم، ويعقد حلقة الذكر، وكان من العلماء المشهورين، وأقبل عليه الناس، وحج من بيت المقدس وأصيب في العقبة بجراحه في عضده، ورجع إلى مصر، فزار شيخه الشيخ محمود الكردي، ومكث مدة، ثم عاد إلى بيت المقدس، وكان ممن طلب إجازة السيد مرتضى الزبيدي، ويختم الجبرتي حديثه عنه بأنه «لم يزل يملي ويعيد، ويدرِّس ويعيد، واشتهر ذكره في الآفاق، وسطعت أنواره وعمَّت أسراره، وانتشرت في الكون أخباره، وازدحمت على سدته زواره» إلى أن توفيَّ في ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م[٣٩].

ويعد الشيخ محمد بن بدير الشافعي المقدسي – صديق الجبرتي – من أهم العلماء المقدسيين الذين زاروا مصر، وارتبط بالسيد مرتضى الزبيدي كذلك، ومن أهم مؤلفات الشيخ محمد بن بدير «قلنسوة التاج»، ونبغ في الشعر، ويعد من كبار علماء عصره، حيث يذكره الجبرتي أنه «فريد عصره في الديار المقدسة، يبدي ويعيد ويدرِّس ويفيد»[٤٠].

والجدير بالذكر أن علماء مصر أجازوا بعض المقدسيين «بالمراسلة» حيث أجازوا الشيخ بدر الدين القدسي بن محمد بن بدر الدين[٤١].

وهكذا تبادل علماء مصر والقدس التدريس والتعليم في كلا البلدين، فأضاءوا ذلك العصر بمؤلفاتهم التي لا تزال بعضها باقيًا يشهد على دور هؤلاء في إثراء الحركة العلمية.

- مكتبات القدس :

نتج عن نزوح عدد من علماء «العالم الإسلامي» إلى بيت المقدس، وتعلُّم الكثير من أبناء بيت المقدس في الكثير من البلاد الإسلامية أن انتشرت المكتبات في القدس، ويرجع ازدهار المكتبات في القدس إلى عصر سلاطين المماليك، حيث كانت خزانة الكتب في الحرم القدسي الشريف من أهم المكتبات ليس في القدس فحسب بل في بلاد الشام بأسرها لما تحويه من كنوز المعرفة، ففيها نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه «كتبه محمد بن الحمد بن الحسين بن بنت رسول الله ﷺ» وبعض نسخ من القرآن الكريم أحضرها السلطان صلاح الدين الأيوبي من مكتبة دمشق عقب فتحه لبيت المقدس، كما حرص سلاطين المماليك على تزويد تلك المكتبة بالكتب النفيسة، بل شاركهم هذا الاهتمام بعض ملوك المغرب العربي مما يدل على مكانة بيت المقدس لديهم، وكانت محتويات تلك المكتبات في تزايد مستمر طوال عصر سلاطين المماليك، بحيث تضخمت بشكل ملحوظ، بما يرجح أن هذا التضخم كان وراء نقلها، وبخاصة الوثائق، والتي أصبحت تعرف فيما بعد بوثائق الحرم القدسي الشريف، إلى مكان خصص لها في الجزء الجنوبي من ساحة الحرم والذي عرف فيما بعد باسم المتحف الإسلامي[٤٢].

ولم يقتصر وجود المكتبات على الحرم القدسي الشريف أو المسجد الأقصى، بل انتشرت المكتبات في المدارس بحيث لا تخلو مدرسة في القدس من خزانة للكتب باعتبارها أحد أهم متطلبات العلم، وكانت كل مدرسة – في الغالب – تحوي في تصميمها المعماري على خزانة الكتب في علوم الدين وغيرها، لتساعد المدرسين والمعيدين وطلبة العلم، ومن أمثلة مكتبات المدارس في القدس، مكتبة أو خزانة المدرسة الأشرفية التي نسبت إلى السلطان الأشرف قايتباي والتي عمرَّها السلطان خشقدم بالقدس. وكان بها خزائن كتب جليلة، وكانت المكتبات محل اهتمام السلاطين، ولم تكن مجرد مخازن للكتب تترك مغلقة على ما فيها من كتب، بل كانت محور النشاط التعليمي في تلك المؤسسات التعليمية، والتي لم تكن للتعليم فقط ولكن أيضًا للتعلم وتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها، والنقل مما تحويه من مادة علمية ثمينة، وكانت مهمة المدرس في ذلك العصر هي أن يُسهل على الطلبة الفهم، ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف، ويعد الطلبة ويدربهم على البحث بأنفسهم، ومن ثم كانت المكتبات وثيقة الصلة بروح التعليم[٤٣].

لقد كانت المكتبة عنصرًا مهمًا وأساسيًا في التربية في المدارس، حيث كانت بمثابة مؤسسة اجتماعية تعليمية لا تتقيد بمنهج محدد أو برنامج معين، ويغلب عليها مناخ الحرية، وقد ساعد ذلك على نبوغ الكثير من الطلبة في مختلف ميادين المعرفة السائدة آنذاك، وكان لتلك المكتبات أثرها في تطوير الحركة العلمية عامة إبان ذلك العصر، كما كان لها دورها في إرساء قواعد النهضة الثقافية في القدس، كما كان لتلك المكتبات أثرها في حركة التأليف التي ازدهرت كذلك كنتيجة من نتائج تشجيع الحكام على العلم والمعرفة.

- مكتبات أهل الذمة في القـــدس :

ساعد وجود الطوائف المسيحية المتعددة في بيت المقدس سواءً أرثوذكس أو كاثوليك على تعدد الكنائس والأديرة، والتي لعبت دورًا مهمًا في الحيـــاة العلميـــة باعتبارها مراكز للتعليم، وحوت تلك الكنائس والأديرة مكتبات ضـــخمة، فعلـــى سبيل المثال وجد بجوار كنيسة القبر المقدسي مكتبة رائعة(٤٤).

وتُعد مكتبة البطريركية الأرثوذكسية الواقعة بالقرب من كنيسة القيامة من أغنى المكتبات في الشرق، وكانت نواة تلك المكتبة مجموعة القبر المقدس ثم أضـــيف إليها مكتبة دير مارسابا، ثم مكتبة المصلبة الواقعة غربي القدس وغيرها ويبلغ عـــدد مخطوطاتها ٢٤٠٠ مخطوط بلغات مختلفة منها اليونانية والعربية والســـريانية، وهـــذه المخطوطات تغطي فترة طويلة في تاريخ بيت المقدس(٤٥).

وفي حارة الشرف – تقع بين حارتي الأرمن واليهود – توجد مكتبة السريان الأرثوذكس في دير مار مرقص، وتعتبر من أقدم المكتبات في القدس، ويقدر ما بقـــي من مخطوطاتها ٣٦٢ مخطوطًا. وإلى جانب ذلك نجد مكتبة الرهبان الفرنسيكان في دير صهيون الخاص بهم، وقد انتقلت هذه المكتبة إلى دير اللاتين أو دير المخلص وديـــر الإفرنج في الشمال الغربي من حارة النصارى نتيجة طرد العثمانيين لهم مـــن عليـــة صهيون الذي كان مقرًا لهم منذ سنة ١٢١٩م وحتى سنة ١٥٥٩م وهو عام طردهم من صهيون، وتعد هذه المكتبة من أغنى مكتبات العالم بما تحويه من الوثائق التي تتعلق بالأرض المقدسة. وقد حافظ عليها أولئك الرهبان محافظة شديدة، وتفـــرغ بعـــض علمائهم منذ سنة ١٩٢٢م لنشر فهرس مستوفي لتلك الوثائق بلغتها العربية الأصلية

مع ترجمتها إلى الإيطالية. وتحتوي خزائن مكتبة الرهبان الفرنسيكان على ألفين وستمائة وأربع وأربعين وثيقة بعضها يرجع لعصر سلاطين المماليك(٤٦).

وتُعد مكتبة دير مار يعقوب من أهم المكتبات في القدس والجدير بالذكر أن دير مار يعقوب لا يُعد مركزًا دينيًا فحسب، بل مركزًا ثقافيًا وتربويًا كذلك. فبعد إنشاء الدير عام ١١٦٥م بدأ شيئًا فشيئًا يلعب دورًا ثقافيًا، فكان يحتوي على مكتبة مهمة في عصر سلاطين المماليك، حيث يوجد بالدير أكبر مجموعة من الوثائق الأرمنية القديمة، وفيه عدد كبير من الوثائق والمراسيم التي أصدرها الحكام المسلمون لجماعة الأرمن بالقدس الشريف، ويبلغ عدد هذه الوثائق (٣٧٠٠) محفوظة في كنيسة ماريثودور في داخل هذا الدير. وقد بنيت هذه الكنيسة في القرن الثالث عشر الميلادي(٤٧).

ومكتبة الدير حافلة بالمصورات والرقوق التي لا تزال تنتظر الدراسة الشاملة، والتقييم والنشر في لغاتها الأصلية، وقد نشر عدد محدود من الوثائق العربية الإسلامية مترجمًا إلى اللغة الأرمنية في كتابين أحدهما كتاب «التاريخ المتسلسل للقدس» للمؤرخ الأرمني أ–تير–هوفا نيسيانيس (A. Ter-Hovannesiants). وقد صدر في القدس سنة ١٩٨٠م، والكتاب الثاني هو «تاريخ القدس» للمؤرخ الأرمني ت.سافالا نياتس (T. Savala niants) وقد صدر أيضًا في القدس في مجلدين سنة ١٩٣١. وقد أورد المؤلفان ترجمة لعدة مراسيم مملوكية صادرة إلى بطاركة الأرمن. كما نشرا عددًا كبيرًا من الوثائق التي أصدرها الولاة والموظفون المحلّيون، مترجمة من العربية إلى الأرمنية كذلك، وغالبها يتعلق بصورة عامة بحقوق الأرمن في الأماكن المقدسة، والممتلكات الدينية، وتعمير المؤسسات الدينية وقضايا

الحج إلى الأماكن المقدسة المسيحية، وقضايا الضرائب والرسوم[٤٨]، ومما لاشك فيه أن هذا العدد الضخم من الوثائق التي تحويها مكتبة الدير بحاجة ماسة لدراستها ونشرها، لأنها تغطي جانبًا مهمًا من تاريخ مدينة القدس.

وانتقلت إلى دير مار يعقوب أول مدرسة أرمنية تأسست في فلسطين سنة ١٨٤٣ في مدينة الرملة، والتي انتقلت إلى الدير في القدس ثم غدت مدرسة اللاهوت المشهورة، وقد شيد أول بناء لها سنة ١٨٥٠م. وفي سنة ١٨٧٦م تم إنشاء المبنى الجديد، بينما تأسس سنة ١٨٧٧م القسم الداخلي الذي يضم نحو ١٠٠ طالب[٤٩].

وفي ٢٦ إبريل ١٩٢٨م تأسست في دير القدس يعقوب أول مدرسة أرمنية مختلطة مع روضتها والتي لا تزال قائمة إلى اليوم، وتأسست أول مطبعة أرمنية سنة ١٨٣٣م في الدير، وهي لا تزال تعمل بنشاط حتى الآن، وصدرت عنها مطبوعات مختلفة ولاسيما مؤلفات المؤرخين الأرمن[٥٠].

وظهرت النشرة الرسمية للبطريركية الأرمنية بالقدس وهي كما ذكرنا داخل دير القدس يعقوب سنة ١٨٧٧م، ثم انقطعت، وتعاودت الصدور من جديد سنة ١٩٢٣م، ولا تزال تصدر إلى اليوم.

وفي سنة ١٨٦٦م تأسست في البطريركية دار المخطوطات «ماديناتاران» أيريفان. وأما المتحف فيضم الكثير من التحف الأثرية والتاريخية التي تكشف التاريخ العريق للجالية الأرمنية في القدس.

وعلى أية حال كان الدير منذ إنشائه، ولا يزال يقوم بدور ثقافي تنويري مهم بالنسبة للأرمن وغيرهم ساعده على القيام بهذا الدور المنشآت التي تم إنشاؤها

داخل الدير من مكتبات ومدارس ودار مخطوطات ولكنها كانت ذات أثر مهم في الثقافة الإنسانية بعامة والأرمنية بخاصة.

وعلى أية حال يمكن أن نستخلص مما سبق أن الأزهر باعتباره أقدم جامعة – لا تزال قائمة حتى اليوم – لعب دورًا مهمًا في توثيق الروابط بين مصر والقدس منذ إنشائه واستمرت إلى العصر العثماني بل وحتى الآن. وقد وجد العديد من الطلبة المقدسيين في رواق الشوام بالأزهر. وقد ارتبط العلماء المقدسيون الذين تعلموا بالأزهر بمصر، حيث حرص البعض منهم على الاستزادة من العلم فيكرر زياراته إلى مصر أكثر من مرة فما كان له أثره في الترابط الثقافي بين البلدين.

وآثر العديد من المقدسيين الحياة في مصر والاشتغال بالعلم، فبرز عدد كبير منهم في العلوم الدينية كعلوم القرآن والحديث والفقه والتشريع بالأزهر والعديد من المساجد والمدارس الكبرى، كما كان منهم من نبغ في علم التاريخ، وتمتع البعض من هؤلاء العلماء المقدسيون في مصر بوضع اجتماعي متميز، وارتبط البعض منهم بالكثير من كبار العلماء والأمراء في مصر. واشتغل البعض من العلماء المقدسيين بالقضاء في القاهرة والأقاليم.

وفي المقابل تردد البعض من العلماء المصريين على القدس ودرَّسوا العلوم الدينية بها، والبعض زار القدس وحج منها إلى الحجاز كما زار مصر البعض من العلماء المقدسيين واجتمعوا بعلمائها وعاد إلى بيت المقدس، كما انتهى البعض من العلماء المقدسيين إلى طريقة من الطرق الصوفية إلى جانب تبحره في العلوم ووجه أستاذه في مصر إلى التوجه إلى القدس – بلده الأصلي – لينشر العلم فيها، وكثيرًا ما كان يعود هؤلاء لزيارة أساتذتهم والاستزادة من العلم ويعود إلى بيت المقدس.

وارتبط البعض من علماء القدس في مصر بعلاقات قوية مع كبار العلماء في مصر آنذاك مثل الشيخ مرتضى الزبيدي والشيخ حسن العطار والشيخ عبد الرحمن الجبرتي.

وقد انتشرت المكتبات في القدس خصوصًا مكتبة الحرم القدسي الشريف ومكتبة المسجد الأقصى وغيرها، وكانت تلك المكتبات بمثابة مؤسسات تعليمية مهمة، كما حوت الكنائس والأديرة على الكثير من المكتبات كمكتبة السريان في دير مار مرقص، ومكتبة الرهبان الفرنسيكان، ومكتبة دير مار يعقوب، ولاشك أن تلك المكتبات كان لها دورها في الترابط بين مصر والقدس.

هوامش البحث

(١) عبد العزيز الشناوي: الأزهر جامعًا وجامعة، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٣، ص ص٦، ٧.

(٢) ناصر عثمان: قبل أن يأتي الغرب، الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٦م، ص١٢٨.

(٣) عبد العزيز الشناوي: الأزهر المرجع السابق، ص ص٢٦٠، ٢٦١.

(٤) نفس المرجع السابق، ص ص٣٠٦، ٣٠٧.

(٥) ناصر عثمان: المرجع السابق، ص١٤١.

(٦) عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج١، ص ص٣٠٧، ٣٠٨.

(٧) عبد الرحيم عبد الرحمن: فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م، ص٢٦٥.

(٨) أنشأ هذا الجامع الأمير قجماس الإسحاقي ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، ويعرف بجامع أبي حريبة وموقعه بالقرب من باب زويلة. انظر: الجبرتي: المصدر السابق، ج٣، ص٤، حاشية٣.

(٩) المصدر السابق، نفسه والصفحة.

(١٠) أنشاها الأمير سيف الدين صرغتمش في عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م. انظر: عبد الله غرباوي: المؤرخون والعلماء في مصر في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م، ص٨٠.

(١١) نفس المرجع السابق والصفحة.

(١٢) نفسه، ص٣٧.

(١٣) نفسه، ص٥٥.

(١٤) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، ج٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣، ج١، ص٢٤.

(١٥) الباب العالي: س١٢٦، ص ص٣، ٤، م٩، ٢٢ ربيع الأول ١٠٥٨هـ/١٨ أبريل ١٦٤٨م.

(١٦) مرعي بن يوسف: قلائد العقيان في فضائل آل عثمان، مخطوط بمكتبة رفاعة بسوهاج، رقم ٦٠ (تاريخ).

(١٧) السيد سمير: الشوام في مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٢٦١. والمدرسة الصلاحية هي المدرسة التي بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد سقوط الخلافة الفاطمية ٥٧٢هـ بجوار الإمام الشافعي، وتصفها المصادر بأنها من أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق. انظر: السيد سمير: المرجع السابق، ص٢٧٨.

(١٨) المرجع السابق، ص ص٢٦٢، ٢٦٣.

(١٩) الجبرتي: المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٣.

(٢٠) ولد بزبيد ونشأ وتعلم بها. وعلى عادة العلماء المسلمين كان لابد من الرحلة لزيادة صقلية علميًا. ويقال إن الزبيدي ارتحل في طلب العلم حتى وصل إلى الهند، وإلى مكة. ونصحه أساتذته بالرحلة إلى مصر حيث وصلها في عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م وهناك بدأ يدرس على يد شيوخ عصره، وتلقى عنهم الإجازة. وفي القاهرة حاز الزبيدي من العلم والشهرة ما لم يعرفه معاصريه. حيث عرفه كبار القوم وأغدقوا عليه عطاياهم تشجيعًا له وتقربًا إليه بعد ازدياد شهرته، مثل الأمير إسماعيل كتخدا عزبان وشيخ العرب همام بل الأمير محمد بك أبو الذهب الذي اشترى نسخة من قاموس الزبيدي الشهير «تاج العروس» بمائة ألف درهم ليضمه إلى خزانة الكتب في جامعه الشهير، وتوفيً الزبيدي في عام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م. انظر: محمد عفيفي: صورة مصر عند الرحالة المسلمين في العصر العثماني، حوليات إسلامية، حولية رقم ٥٣٣، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة ١٩٩٩، ص٧٦.

(٢١) الجبرتي: المصدر السابق، ج٢، ص٥٣٧.

(٢٢) الشيخ النابلسي عدة مؤلفات منها «المقصود في وحدة الوجود» و«الفتح الرباني والفيض الرحماني» و«الرحلة القدسية». انظر: الجبرتي: المصدر السابق، ج١، ص٢٦٤.

(٢٣) الجبرتي: المصدر السابق، ج٢، ص ص٥٨٣، ٥٨٤.

(٢٤) نفسه، ص٥٨٤.

(٢٥) نفسه.

(٢٦) نفسه، ص٥٨٥.

(٢٧) نفسه.

(٢٨) نفسه، ص٥٨٦.

(٢٩) السيد سمير: المرجع السابق، ص ص٢٥٩، ٢٦٠.

(٣٠) الجبرتي: المصدر السابق، ج٢، ص٤٩٥.

(٣١) السيد سمير: المرجع السابق، ص٢٦١.

(٣٢) المرجع السابق نفسه، ص٢٦٩.

(٣٣) كارين أرمسترونج: القدس، مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، سطور، الكتاب الرابع، القاهرة ١٩٩٨م، ص٤٢٩.

(٣٤) علي السيد: مكتبات عثمانية عشية العصر المملوكي في مدينة بيت المقدس، بحث ضمن أبحاث كتاب ثقافة النخبة وثقافة العامة في مصر في العصر العثماني، منشورات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب – جامعة القاهرة، ط١، القاهرة ٢٠٠٨م، ص٢٢.

(٣٥) مصطفى عبد الغني: الأوقاف على القدس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ص٤٤، ٤٥.

(٣٦) الجبرتي: المصدر السابق، ج٣، ص٤٥.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ص١٨٨، ١٨٩.

(٣٨) نفسه، ج٥، ص ص١٨٧، ١٨٨.

(٣٩) المصدر نفسه، ج٦، ص ص٥٦٧، ٥٦٨.

(٤٠) المصدر نفسه، ج٤، ص ص٣١٥، ٣١٦.

(٤١) السيد سمير: المرجع السابق، ص٨٦٦.

(٤٢) علي السيد: المرجع السابق، ص ص٢٢، ٢٣.

(٤٣) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة ١٩٦٣، ص٣٩ وما بعدها.

(44) Warren: The Survey of Western Palestine, London, 1884, pp. 30-31.

(٤٥) علي السيد: المرجع السابق، ص٣٢.

(٤٦) نفسه، ص ص٣٣، ٣٤.

(٤٧) جمال كمال محمود: أوقاف دير مار يعقوب، المرجع السابق، ص٣٠٠.

(٤٨) نفسه، ص ص٣٠٠، ٣٠١.

(٤٩) علي السيد: المرجع السابق، ص ص٣٢، ٣٣.

(٥٠) هوري عزازبان: الأرمن في فلسطين، مقال بالملحق العربي لجريدة أريف الأرمنية، عدد ٣، مارس ٢٠٠١م، ص٩.